العرب
الثلاثاء 2019/07/23
السنة 42 العدد 11416

محمد الغربي عمران: كتابة الرواية تُنقذ من الجنون والانتحار

المجتمع اليمني لا يزال مجهولا والرواية أداة لتسليط الضوء عليه

تبقى الكتابة فعلا خلاقا يشتبك فيه الواقعي بالخيالي وذات الكاتب بما داخلها من أصوات ومعارف وتجارب وبما خارجها أيضا من عناصر حية. تشابك لا يعرف سر حل خيوطه إلا الكاتب نفسه. في حديث حول الكتابة وأسرارها، التقت "العرب" بالكاتب اليمني محمد الغربي عمران، الذي دخل بنا مجاهل مطبخه السري ككاتب.

حنان عقيل
كاتبة مصرية

محمد الغربي عمران، واحد من أبرز كُتّاب اليمن، أصدر عددًا من الأعمال الأدبية سواء في القصة أو الرواية، فبعد صدور روايته البارزة "مصحف أحمر" كان له عدد من الروايات منها "ظلمة يائيل" التي فازت بجائزة الطيب صالح عام 2012، "الثائر"، "مملكة الجواري"، وقد سبقت مسيرته القصصية العمل الروائي، فكان له خمس مجموعات من القصص القصيرة منها: "الشراشف"، "الظل العاري"، "منارة سوداء".

انتهي الروائي اليمني محمد الغربي عمران أخيرًا من كتابة رواية بعنوان "بر الدناكل"، والتي من المنتظر أن تصدر قريبًا، تدور أحداث الرواية في فترة عقدين ماضيين وحتى اليوم، وهي رواية الحرب الدائرة في اليمن، ويلفت الكاتب إلى أن المرأة في هذه الرواية محور رئيس، كونها تتعرض لقبح الاحتراب؛ فالحرب دفعت بالكثيرات للهجرة خارج اليمن، وشخصية الرواية الجديدة فتاة من عدن تجبرها الحرب والتسلط الديني على ترك وطنها وأسرتها وحبيبها الذي خذلها وتستقر في إحدى الدول الأوروبية، من ثم فهي رواية تحكي معاناة الإنسان تحت ضغط التناحر.

مجتمع القبيلة

في رواية "حصن الزيدي"، الفائزة مؤخرًا بالمركز الثاني لجائزة راشد بن حمد الشرقي للإبداع، يُسلط الكاتب الضوء على مجتمع القبيلة في اليمن وما يعتمل فيه جراء سيطرة جماعات الإسلام السياسي.. يوضح عمران: في اليمن تحكم القبيلة منذ قرون، وما زالت هي المتحكمة، وإن ظهرت في هذه الحقبة من خلال مشايخ القبائل بأنها مُسيرة، لكن القبيلة من تتحكم بمجريات الأمور فهي منجم المحاربين وهي المتقلبة مع من غلب وهي التي تحكم خاصة متى ما ضعف المركز للسلطة، وهو كما يقول ابن القبيلة ويفهم تشعبات قيمها، ودوافع رجالها، ولذلك يجد نفسه مسكونا بمجتمعها، محاولا تعرية ما التبس وإخراج ما يعتمل تحت الرماد للعلن. فالمجتمع اليمني لا يزال مجهولا لدى الآخر العربي والإنساني والرواية أداة لتسليط الضوء عليه.

يُبيّن عمران أن مشروعه هو المجتمع اليمني، أن يستمر في الكتابة عن جوانبه الحياتية، ويسلط الضوء على المرأة في حياتها كضحية لقيم مجتمعية وتعاليم دينية، فلا يزال في المجتمع ما يُكتب عنه ولا يزال المخبّأ يدهشه، فالحرية والمساواة همه، والمرأة هي الحلقة الأضعف في مجتمعاتنا وعلينا كأدباء ومثقفين أن ننشل أنفسنا بانتشالها من وضع مخز يضعها فيه الدين والأعراف والقيم التالفة.

يُشكّل الدين محورًا رئيسيًا في كتابات عمران الذي اهتم برصد تأثير الفكر الديني على التدهور الاجتماعي والفكري، يقول عمران: "الدين معضلة، هذه قناعتي. الدين مُحرّك لكل خراب يحيط بنا، وعلينا معرفة أن الدين مسألة شخصية، الدين ذاتي بين الفرد ومعبوده، وعلينا أن نبعد الدين عن السياسة حتى نوقف الخراب المستشري، أن نشذب التسلط بأدوات القمع والتشدد، ولن يكون لنا في خارطة الإنسانية مكان ما لم نقنن مساحة الدين لتكون مساحة شخصية لكل فرد، ونجرم إقامة الأحزاب أو الجماعات على أسس دينية أو مذهبية، فلا يجوز أن يفرض الدين في دساتيرنا وقوانيننا، وعلينا أن نحمي الدين من الغلاة والمتطرفين وعدم تحويله إلى وحش يلتهم الجميع".

عانى الكاتب من التعنت في نشر وتوزيع أعماله الروائية بحجة اقتحامها للثالوث المُحرّم.. ويشير عمران هنا إلى أن تلك التجربة لم تؤثر سلبا قط عليه، بل إن ذلك المنع دفعه لمقاومة هيمنة كل رقيب، وأبرز ذلك التخلص من الرقيب الذاتي لأنها أساس إجهاض الإبداع، فحين يكتب يخلع كل رقيب، ويكتب بحرية، وحين يراجع نصه قبل النشر يزيد من نسبة التمرد فيه، فإبداع دون تمرد إبداع ميت.

الكتابة ليس من وظائفها تغيير شيء، والكاتب ليس مصلحًا اجتماعيا، وعليه أن يتخلص من السلطوي والقاضي القابعين داخله

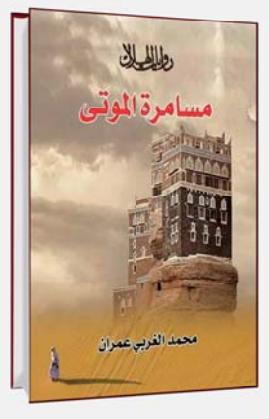

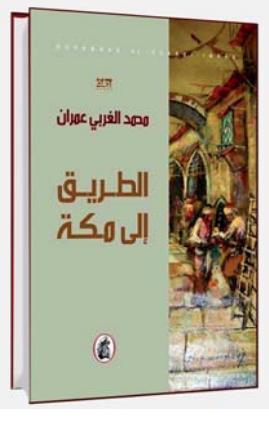

إبداع دون تمرد إبداع ميت

الحيوات ثراء

يرى عمران أن من لم يعش حيوات متعددة تظل كتاباته يعتريها نقص ما، فالحيوات ثراء وكنز يخبئه العقل الباطن وتتدفق تلك الحيوات أثناء الكتابة بشكل مدهش، فمسيرة حياته بداية براعي إبل في صباه ثم هجرة عمه به من القرية الجبلية إلى السودان ودراسته لمدة ثلاث سنوات في مدرسة قبطية وعودته إلى اليمن وهجرته إلى السعودية بحثا عن عمل، والعمل هناك في عدة مهن منها البناء وموزع ثلج في سوق الخضرة، وأثناء ذلك كان يواصل تعليمه، ثم بعد سنوات عاد إلى اليمن وانتخب في المجلس المحلي ثم كنائب في البرلمان، تلك الحيوات تسكنه وتخرج أثناء الكتابة. وبالطبع القراءة اليومية هي زاد التجدد، فلا غنى للكاتب عن القراءة المتنوعة والدائمة، وقبل كل ذلك الموهبة.

يحرص عمران على معالجة الهامشي في التاريخي وليس المتن في أعماله الروائية، ويبين قائلا "تخصصي تاريخ 'ليسانس تاريخ'، وحين أكتب لا أكتب تاريخ، ولا أنقل ما صهرته الكتب لإيماني بأن نسبة مما ذكرته كتب التاريخ وعلى وجه الخصوص العربي مزيف، فما هو بين أيدينا مجرد سير للطغاة، أو بالأصح تاريخ المنتصر. وهنا حين نعود لنتخيل علينا تخيل ما لم يكتب، تخيل ما حدث، تخيل أثر تلك الأحداث على المجتمع، أن نكتب الشخصيات الهامشية، شخصيات متخيلة في قوالب متخيلة، فالرواية فن النبش وإثارة الأسئلة وإشراك المتلقي في ما يعتمل من فكر وأحداث".

غيبوبة الكتابة

حول علاقته بالقارئ يقول عمران "سؤالك يدعوني لمحاولة التفكير به، فأنا لم أفكر يوما به، وأرى أن لحظات الكتابة هي لحظات ذاتية يغيب فيها الوجود عدا شخصيات العمل ومشاعرنا المشتركة. ففي الرواية عوالم أجزم بأنها تنقذ الكثيرين من الكتاب من الجنون والتفكير بالانتحار. الكتابة حياة موازية للكاتب لا يراها أو يعيشها من حوله، ولذلك لا وجود للقارئ أثناء كتابتي، لكن القارئ يحضر بقوة بعد صدور العمل، فأنا أعشق أن أسمع الحديث عن عملي، شخصياته، ألاعيبي الفنية. بعد صدوره يحضر القارئ في وعيي ومسامعي بقوة".

يصف عمران المشاعر إزاء شخوص العمل الأدبي التي تسيطر عليه بعد الانتهاء من كتابته بقوله "كمن يستفيق من غيبوبة، أو يخرج إلى سطح الماء، أشهق بفرح وأنظر حولي لأكتشف بأن كل شيء لا يزال يسير كما تركته، لكني أشعر بالاكتئاب لأيام وقد أدركت بأن شخوصي المتخيلة انفصلت وأن معايشتي لها أثناء تخلقها قد انقضت، شعور كمن يفارق شيئا من نفسه، جزءا من قلبه، ولأتخلص من مشاعر الفقد أخطط بتغيير إيقاع حياتي، لأحتفي إما بالسفر وإما بالخروج ومكافأة نفسي بما أشتاق إليه، وقد تكون أشياء بسيطة، والتفكير كسلوى وتعويض عن شخصياتي السابقة بعمل جديد وشخصيات جديدة.

وعن القناعات الفكرية المُحفزّة على الكتابة يشير عمران إلى أنه في البداية كانت لديه قناعة بأن عليه تغيير العالم بكتاباته، لكنه اكتشف أن الكتابة ليس من وظائفها تغيير شيء، وأن الكاتب ليس مصلحًا اجتماعيا، وعليه أن يتخلص من السلطوي الذي يقبع بداخله والقاضي الذي يصدر الأحكام، ووجد أن الكتابة حياة يعيشها هو ولا يعيشها من حوله بل وليسوا معنيين بما يدور بخلده، ليصل إلى أن الكتابة هروب من قبح واقع يرفضه، فهي صوت بداخله يخصه، وعمل بعد آخر يرى الكتابة أنينا شجيا لروحه.

وفي ما يتعلق برؤيته لواقع الرواية اليمنية في الوقت الحالي يقول عمران "في اليمن ما يقارب ثلاثين مليون إنسان، وما ينتشر من أدب لا يعبر عن ما يكتب، فالنشر محدود والتوزيع منعدم، وزادت دورات الحروب من هشاشة الوضع الثقافي وتدمير بناه، ولذلك ما يصدر بين فينة وأخرى من كتب وخاصة الرواية هي جهود فردية، فالسلطة مهتمة بالحرب، والنخب السياسية مصابة بعمى الألوان ولا ترى في الوجود إلا نفسها، إلا أن تلك الأعمال التي يعتمد في نتاجها على الرد أراها في تزايد وخاصة الأعمال الروائية، فهناك عدد من الأسماء لها أعمال جيدة طبعت ونشرت خارج اليمن، وبعضها نافس على جوائز عربية، وأجزم بأن الغد سيكون أكثر ترحيبًا بالرواية والأدب اليمنيين.

رهانات خاسرة على حصان اللغات المحكية

مفيد نجم
كاتب سوري

تجدد الدعوات لاستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة المحكية في أكثر من بلد عربي وفي أزمنة مختلفة يطرح أكثر من سؤال حول أسباب ظهورها المتكرر وما ينطوي عليه هذا الظهور من دلالات. الإجابة عن هذه الأسباب تتطلب تجاوز الحديث المكرور عن أهمية اللغة العربية كلسان جامع وعن دورها الذي ما زالت تلعبه في حفظ تراثنا وهويتنا الحضارية، إلى البحث في الأسباب التي تجعل اللغة العربية تواجه مثل هذه التحديات لكي يتم تدارك أسبابها بصورة واعية وعلمية. فهل يكون هذا الظهور المتكرر تعبيرا عن أزمة هوية تعيشها المجتمعات العربية أو فئات منها، أم إنها مؤشر إلى أزمة وعي وانتماء، أو دلالة على عجز هذه اللغة عن تحقيق وحدة المجتمعات العربية وانصهارها داخل هذا الحيز الثقافي العربي طوال هذا التاريخ الطويل، أم إن هناك أسبابا سياسية وثقافية أخرى لهذه الظاهرة.

إن استعادة الحوار حول هذه القضية لا يقلل من أهميته فشل جميع المحاولات السابقة في تحقيق أي اختراق في جسد اللغة الفصحى، خاصة وأن ثمة عوامل روحية وحضارية وثقافية تسهم في تحصينها وتأكيد دورها في ربط ماضي الشعوب العربية بحاضرها والتعبير عن هويتها الحضارية. لكن خطورة هذه الدعوات تكمن في تحويل البلدان العربية إلى جزر معزولة عن بعضها البعض وعن تراثها وماضيها، الذي تشكل اللغة الفصحى وعاء له، كما يعني القطع مع كل ما يمت للماضي بصلة.

وإذا كانت الفصحى تحتاج إلى تطوير وتبسيط يتناسب مع المعطيات الجديدة للحياة العصرية ولغة العلم، فإن اللغة المحكية هي لغة شفوية محلية تختلف قليلا أو كثيرا من منطقة إلى أخرى داخل البلد الواحد، كما أنها لغة تفتقد إلى القواعد والتقنين الذي يجعل من الممكن استخدامها في الكتابة والتدوين، إضافة إلى عجزها عن استيعاب لغة العلم والتقنية، إلا إذا كان أصحاب هذه الدعوات سيستخدمون اللغة الأجنبية في لغة العلوم والتقنية، ما يعني استخدام لغتين مختلفتين، واحدة في المدارس وأخرى في التواصل والكتابة.

قبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى وجود نزعات محلية وأخرى عرقية تحاول العودة إلى ماض لم يعد له أي وجود، يمكن البناء عليه، لذلك ليس غريبا أن يكون الداعون إلى هذه اللغات فئات قليلة في مجتمعاتها، تحاول التغريد خارج السرب وبعيدا عن حقائق الواقع والثقافة والرابط الوجداني الذي استطاعت اللغة الفصحى أن تحققه عبر المئات من السنين. إن ما يعيشه الواقع العربي الراهن من تفكك وضعف وضياع أصبح يغري في ما يبدو أصحاب هذه الدعوات على محاولة تمرير مشاريع تزيد من تأزم الواقع العربي وضعفه وتشرذمه، بدلا من اقتراح الحلول العلمية والناجعة للخروج من هذا الوضع المتردي، لأنه الكفيل بخلق الحوافز التي يمكنها أن تدفع باتجاه تطوير لغة الضاد.

إن محاولة تكريس هذه اللهجات تتعارض مع الهوية الثقافية والحضارية التي تشكلت عبر تاريخ طويل كانت اللغة العربية وما زالت هي الحامل الأساسي لها. لذلك تنطوي هذه الدعوات في خلفياتها على مشاريع سياسية وثقافية خاصة ومشبوهة، تتجاهل التنوع الثقافي والعرقي في كثير من البلدان العربية، حيث تتباين أيضا لغاتها المحكية بين ساحل وجبل ومجتمع حضري وآخر بدوي، الأمر الذي يجعل هذه المحاولات خطرا على وحدة بنية هذه المجتمعات وتماسكها، كما يجعل منها محاولة لفرض آراء أقلية على المجتمع إذ لم يفوضها أحد بهكذا إجراء يزيد من مشاكل الواقع وانقسامه وضعفه.

والغريب أن الداعين للغات المحكية يتجاهلون مسألة هامة تتجلى في أن هذه اللغات هي مزيج من اللغات المحلية واللغة العربية الفصحى، والسؤال هنا هل تقدم هذه اللغات المحلية أي قيمة ثقافية أو علمية في حال استخدامها، أم إنها تشكل عودة إلى مرحلة ما قبل التدوين، نظرا لكونها لغات شفاهية ذات طابع شعبي وحسي بسيط. لقد استطاعت الحضارة العربية والإسلامية طوال المئات من السنين أن تتمثل هذه اللغات وتصهرها في بوتقة اللغة الواحدة، وأن تحقق وحدة اللغة والثقافة التي يحاول البعض النكوص بها إلى عصر المحلية والعزلة.

الغريب أن الداعين للغات المحكية يتجاهلون أن هذه اللغات هي مزيج من اللغات المحلية واللغة العربية الفصحى

قد حاولت بعض الأحزاب والشخصيات الانعزالية في الماضي أن توظف هذه الدعوات من أجل تحقيق أهداف سياسية وثقافية انعزالية، تنقلب من خلالها على الموروث الثقافي والحضاري العربي، واستعادة هوية ثقافية لم تعد موجودة وقد تجاوزتها حقائق التاريخ والواقع. لكن الغريب أن الدعوات القديمة جاءت في مرحلة صعود التيارات القومية العربية التي اعتبرها مروجوها تتعارض مع هويات صارت من الماضي، بينما هي تظهر اليوم في مرحلة يواجه فيها الواقع العربي تحديات كبيرة على مستوى الخيارات وإعادة تكوين المجال السياسي والاجتماعي، ما يتطلب العمل على تعزيز دور اللغة العربية كهوية حضارية جامعة قادرة على الاستجابة لتحديات العصر بوصفها لغة حية وقادرة على التجديد والتطور.

لقد كانت تونس كما كانت بلدان المغرب العربي أكثر تفاعلا وانفتاحا على محيطها العربي، وكانت الثقافة العربية هي الحاضنة الواسعة للفكر والأدب والفلسفة، ولم تكن إسهامات الكتاب والمفكرين في تونس والمغرب العربي عموما أقل أهمية وتأثيرا في الثقافة العربية من الكتاب والمفكرين العرب الآخرين، وقد تربت أجيال عربية كثيرة وما زالت على قصائد أبي القاسم الشابي عن الحرية والنضال من أجلها، كما لا يمكن القفز فوق الإسهامات المعروفة لأعلام الفكر وعلم الاجتماع والفلسفة في الثقافة العربية، فلماذا يصر دعاة المحلية والهويات المختلقة على القطع مع هذا التراث وهذه اللغة على الرغم من إدراكهم فشل هذه المحاولات سابقا وعجزها عن خلق واقع ثقافي بديل.

اللغات تداخلت ولا يمكن فصلها